مجلة العلوم الإجتماعية والانسانية

المجلد 09 / العـدد:02 (2019)،
ص 113- 143

رِحْلَةُ المُحَدِّثينَ العِلْمِيَّةِ بين مِصْرَ و بِلادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ خِلاَلِ الْقَرْنَيْنِ الثَّالِث وَالرّابع الْهِجْرِيّينَ

The scientific journey of the Hadith reporters between Egypt the Oxus River during the third and fourth centuries AH

الدكتور مَحْمُود مُحَمَّد السَّيِّد خَلَفِ*

الجامعة الإسلامية، ولاية منيسوتا، الولايات المتحدة الأمريكية.

mahmoudkhalf141973@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2018/02/25 تاريخ القبول: 2020/01/07 تاريخ النشر 2020/01/17

ملخص:

يتناول هذا البحث" رحلة المُحِّدثين العلمية بين مصر وبلاد ما وراء النهر، خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين". وقد قسمتُ هذا البحث إلى تمهيد ومبحثين رئيسين وخاتمة، ألقيتُ الضوء في التمهيد على تعريف علم الحديث، وأهميته. وتحدثتُ في المبحث الأول: عن الرحلة العلمية بين البلدين خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. فقد شهدت بلاد ما وراء النهر ـ خلال هذا القرن ـ رحيل تسعة من أبرز محدثيها إلى مصر، فعرفتُ بهم ، وبأشهر شيوخهم وتلامذتهم وأهم مُصَنَّفاتهم. ويأتي في مقدمة هؤلاء المُحِّدثين: الإمام الدَّارمي السمرقندي [المتوفى عام: 255 هـ / 869 م]، والإمام البخاري[المتوفى عام: 256هـ/ 870 م]. وفي المبحث الثاني: تحدثتُ عن الرحلة العلمية بين البلدين خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، والذي شهد رحيل بعض المُحِّدثين المصريين إلى بلاد ما وراء النهر، فكان من أبرزهم: ابن السكن المصري [المتوفى عام: 353 هـ / 964 م] ، والحافظ المصري [المتوفى عام: 386 هـ / 996 م]. الخاتمة: تناولتُ فيها عرضًا لأهم النتائج التي توصلتُ إليها من خلال هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: الرحلة العلمية؛ علم الحديث؛ المحدثون؛ الأثر العلمي.

---

*المؤلف المرسل: مَحْمُود مُحَمَّد السَّيِّد خَلَفِ.: mahmoudkhalf141973@gmail.com

:Abstract

This research deals with the scientific journey of the Mohaddethin "the scholars of the Hadith" between Egypt and Transoxiana, during the third and fourth hijri centuries (ninth and tenth centuries AD). The research includes an introduction, two studies and a conclusion. The introduction handles the definition and importance of Hadith science. The first study deals with the scientific journey between the two regions during the third century AH (the ninth century AD). During this period, Transoxiana has seen the migration of nine of the most supreme Mohaddethin to Egypt. The research includes their life, teachers, students and their most important books. At the forefront of them Imam Al-Darimi who died in 255 AH (869 AD) and Imam Bukhari who died in 256 AH (870 AD). The second study handles the scientific journey between the two countries during the fourth century AH (tenth century AD) which witnessed the migration of some Egyptian Mohaddethin to Transoxiana. The most prominent of them; Ibn Al-Sakan Al-Messery who died in 353 AH (964 AD) and Al-Hafith Al-Messery who died in 386 AH (996 AD). The conclusion shows the most important findings of the research.

الْمُقَدِّمَة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، والصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ، وبعد: فإن من أهم ما يميز طلاب العلم في الإسلام، رحلتهم العلمية من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر في سبيل طلب العلم، غير مبالين ما يعترضهم من مشقة وعَنَاء وفقر، مع ما في السفر آنذاك من صعاب.

وكان المُحَدِّثون - والحق يقال - أنشط الناس لرحيل، وأصبرهم على عناء. ذلك أن الصحابة عند الفتح الإسلامي تفرقوا في الأمصار، فمنهم مَن سكن فارس، ومَن سكن العراق، ومَن سكن مصر، ومَن سكن الشام؛ وكان هؤلاء يحملون حديثًا عن رسول الله ﷺ أخذه عنهم التابعون ومن بعدهم، فكان في كل مصر طائفة من الحديث لا تعرف في الأمصار الأخرى، فجد العلماء في الرحلة يأخذون الأحاديث عن أهلها، ويجمعون ما تفرق منها، وكان باعثهم الديني يذلل كل عقبة، ويسهل كل مشقة.

والواقع أن مصر قد شهدت نشاطًا علميًا بارزًا، نهض به علماء مصريون ، وصارت مصر مركزًا لاجتذاب العلماء والطلاب من الأقطار المجاورة، من بلاد المغرب والأندلس تارة، ومن بلاد المشرق الإسلامي ـ ويأتي في مقدمتها بلاد ما وراء النهرـ تارة أخرى.

والمقصود ببلاد ما وراء النهر: تلكم المناطق الخصبة السهلة الواقعة بين نهري سَيْحَون – سِرْ دِرْيَا حاليًا – وجَيْحَون – أَمُوْ دِرْيَا حاليًا – اللذين يصبان في بحيرة خوارزم – بحر أورال حاليًا، والشاطئ الأيسر لنهر سَيْحَون، ويشتمل: طَخَارِسَتان والخُتَّل – وهذه البلاد أطلق عليها المسلمون قديمًا بلاد ما وراء النهر، وتعرف حاليًا بدول آسيا الوسطي(وهي: كازاخستان، أوزبكستان، قيرغيزستان، طاجكستان، تركمانستان)، وإن كانت جمهورية أوزبكستان المستقلة عن الاتحاد السوفيتي – السابق – في الثامن من ديسمبر(1412هـ/ 1991 م) تشغل الحيز الأكبر منها.

ومن الجدير بالذكر، أن هذه البلاد قد فتحها القائد المُظَّفر قتيبة بن مسلم الباهلي[46-96 هـ / 669 - 715 م] في خلافة الوليد بن عبد الملك [86 - 96 هـ / 705 - 715 م] ، ونجحت الدولة الأموية في نشر الإسلام بين سكانها. كما نجحت الدولة العباسية في تعميق انتشار الإسلام في هذه البلاد حتى أخذت طابعًا إسلاميًا واضحًا خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وأصبحت بلاد ما وراء النهر جزءًا من كيان الدولة الإسلامية(خلف، 2014، ص15).

وهذا البحث يلقي الضوء على " رِحْلَةُ المُحَدِّثِينَ العِلْمِيَّةِ بين مِصْرَ و بِلادِ مَا وَرَاءَ النَّهْر خِلَالِ الْقَرْنَيْنِ الثَّالِثُ وَالرّابِعُ الْهِجْرِيّينَ ". وذلك لأن كلا البلدين قد ازدهرت فيه الحياة العلمية خلال تلك الفترة. فإن كانت بلاد ما وراء النهر وارثة علوم إقليم خراسان، فإن مصر هي وارثة علوم المشرق الإسلامي كله. لذا كان من الطبيعي أن يجمع المحدثون في رحلتهم بين البلدين. يقول العلامة ابن خلدون: " واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة. ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع، وبقى بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هناك من حضارة بالدولة التي فيها، فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تُنكر"(خلدون،2006 ، 1124).

وَآَخِرُ دَعْوَانًا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

التمهيد:

عرَّف العلماء علم الحديث بأنه :" كل ما ورد عن الرسول (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير"(الملقن،41،1992). وبعد عصر الرسول (ﷺ) ضُم إلى الحديث ما ورد عن الصحابة﵃ ، فهم الذين عاشروا الرسول (ﷺ) وسمعوا منه، وشاهدوا أعماله ، ثم حدثوا بما رأوا وبما سمعوا . ثم جاء

التابعون فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا. فكان من الأخبار عن رسول الله(ﷺ) وأصحابه ما عرف باسم " الحديث"(العراقي،2002، 105).

ولستُ هنا بصدد الكلام عن قصة تدوين الحديث، والذي يهمني هنا القول: إن علم الحديث كان له أكبر الأثر في نشر الثقافة في العالم الإسلامي، حيث أقبل الناس عليه يتدارسونه، وكانت حركة الأمصار العلمية تكاد تدور عليه. حيث رحل طلاب العلم إليه من أقصى الدولة الإسلامية ، وطوّفوا ببلدان العالم الإسلامي ، يأخذون عن علمائهم ومشايخهم. ولا تكاد تقرأ ترجمة أحد من المُحِّدثين إلا وتجد فيها جزءًا كبيرًا من حياته يتضمن رحلته العلمية. ولا غرابة في ذلك ، فلم يكن الرواة في تاريخ الثقافة الإسلامية بالعدد القليل، فإنهم يزيدون على ستين بالمائة من رجال العلم والفكر. وأستطيع القول: إنا لا نكاد نجد " عالمًا" لم يشارك من قريب أو بعيد في حمل الحديث وروايته، فقد كان ذلك فخرًا علميًا لا يهمله إلا الأقلون، وكان لقب" الحافظ" من أجل الألقاب التي يحملها عالم.

يضاف إلى ذلك ، أن الحديث كان له أثر كبير على أنواع الثقافة الإسلامية ـ فعلى سبيل المثال ـ نجد التاريخ الإسلامي قد خرج من علم حديث ، ثم تطور إلى أن صار عِلمًا قائمًا بنفسه. كما كان للحديث أثر كبير في التشريع، لأنه منبع استقصاء الدليل بعد القرآن الكريم في العبادات والمسائل المدنية والجنائية(أمين، 2002، 107) وغير ذلك.

وعلى ذلك، فقد كان الحديث أوسع مادة للعلم والثقافة والتشريع عند المسلمين.

هذا، ويمثل القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، عصرًا ذهبيًا في تاريخ علم الحديث، فقد ظهر فيه كبار أئمة الحديث، وتم فيه تدوين السُّنَّة النبوية، ويأتي في مقدمتها أشهر كتب الحديث؛ صحيح الإمام البخاري، المنسوب إلى بخارى؛ إحدى بلاد ما وراء النهر.

المبحث الأول: الرحلة العلمية بين البلدين خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي:

يعد الإمام محمد بن سَلام [بالتخفيف] بن فرج البخاري ، أبو عبد الله البيكندي، من أقدم المُحَدِّثين ببلاد ما وراء النهر، والذي رحل إلى مصر وعاش فيها خلال تلك الفترة. ولد سنة [162هـ/ 769م] في مدينة بيكند إحدى قري إقليم بخارى، الواقعة على نهر جيحون، فنُسب إليها.

عمل البيكندي بالتجارة في بداية حياته، ثم التفت إلى طلب العلم، وخاصة علم الحديث، فرحل من أجله إلى آفاق العالم الإسلامي. بدأ بإقليم خوارزم، المتاخم لإقليم بخارى فسمع بها : عبد الكريم بن الأسود البصري ، ومغيرة بن موسى(الذهبي، 1993، 361). وبعد أن قضى رحلته ببلاد ما وراء

النهر، يمم وجهه إلى حاضرة العالم الإسلامي (بغداد) فسمع بها من أبي الأحوص سلام بن سليم (الصفدي،2002، 96) ، وأبي إسحاق الفزاري(ابن حجر، 1984، 118)، وسفيان بن عينية، وغيرهم.

رحل ابن سلام بعد ذلك إلى المدينة للسماع من إمامها وعالِمها مالك بن أنس [93 ـ 179 هـ / 712 ـ 795 م] غير أنه لم يسمع منه(ابن العماد،1985، 56) ، قال عن نفسه : " أدركتُ مالك بن أنس ، فإذا الناس يقرؤون عليه ، فلم أسمع منه لذلك"(الذهبي،1993، 361). وهذه مسألة تستحق المناقشة، إذ كيف يرحل البيكندي من بلاد ما وراء النهر إلى المدينة لرؤية الإمام مالك بن أنس، ولا يأخذ عنه؟!

ولعل السبب في ذلك، أن ابن سلام كان يرى أن طريقة التعليم الصحيحة هي أن يقرأ الشيخ ويستمع التلاميذ إليه، ويأخذون عنه بمعنى أنه كان يريد السماع المباشر من الإمام مالك، وليس بطريقة (العرض) وهي القراءة على الشيخ، وهذه طريقة من طرق التحمل، وأرفعها السماع على الشيخ في مجالس الإملاء ، ثم القراءة ، ثم المناولة مع الإجازة ، ثم الإجازة. قال الذهبي : " كان عامة مشايخ ذلك الوقت إنما يروون من لفظهم "(الذهبي،1993، 361).

أو لعل السبب يرجع إلى طريقة الإمام مالك في التعليم ، حيث كان له في درسه مجلسان: أحدهما للحديث، والآخر للمسائل، أي الفتيا في أحكام الأمور التي تقع . يحكى أحد تلاميذه: " إنه كان عندما انتقل درس الإمام إلى بيته إذا أتاه الناس تخرج لهم الجارية. فتقول لهم: يقول لكم الشيخ أتريدون الحديث. أم المسائل؟ فإن قالوا: المسائل؟ خرج إليهم فأفتاهم. وإن قالوا الحديث، قال لهم: اجلسوا ، ودخل مغتسله فاغتسل وتطيب، ولبس ثيابًا جددًا وتعمم، فتلقى له المنصة، فيخرج إليهم وقد لبس وتطيب وعليه الخشوع ، ويوضع عود فلا يزال يبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله(ﷺ)(عياض، 1998، 77).

أقول؛ لعل البيكندي قد صادف مجلس الإمام مالك المخصص للمسائل التي تقرأ عليه، ولم يكن يعلم أن هناك مجلس آخر مخصص للحديث؛ الذي هو بغية ابن سلام، والذي رحل من أجله. فلذا لم يأخذ عن الإمام مالك.

على كل حال، رحل ابن سلام من الحجاز إلى مصر، فسمع بها على بن الجعد، والحسن بن سوار(المقريزي،1996، 714) وخلق غيرهم. ومن الجدير بالذكر، أن ابن سلام كان حريصًا على طلب العلم؛ ومن طريف ما يُروى في ذلك، أنه انكسر قلمه في مجلس علم ، فأمر أن ينادي: قلم بدينار، فطارت إليه الأقلام (الذهبي،1993، 359). قال عن نفسه: " أنفقتُ في طلب العلم أربعين ألفًا،

وأنفقتُ في نشره أربعين ألفًا" (الصفدي،96). هذا، وقد شغل حب طلب العلم ابن سلام عن الدنيا كلها، فلم يكن له هم سواه، قال: " لم أجلس في سوق بيكند(النرشخي، 1993، 36) منذ أربعين سنة "(الذهبي،1993، 359)، ومع ذلك فكان ـ كما يقول الذهبي ـ"محتشما ذا أموال"(الذهبي، 1985، 629).

مما سبق نستنتج، أن ابن سلام قد طوّف في معظم أنحاء العالم الإسلامي، وسمع كثير من مشايخ زمانه، حتى وصل عدد شيوخه إلى الأربعمائة، كما يقول الذهبي(الذهبي، 1985، 628). واستطاع من خلال رحلته العلمية الطويلة من بلاد ما وراء النهر حتى مصر، أن يجمع كثيرًا من علم الحديث فكان " يحفظ نحوًا من خمسة آلاف حديث " (الذهبي، 1998، 9). قال السمعاني:" كان فقيهًا محدثًا ثقةً"(السمعاني، 1988، 434) ، وقال الصفدي: " طوّف وكتب الكثير"(الصفدي، 96) ، وقال السيوطي: " كان من كبار المُحِّدثين ، وله حديث كثير ورحلة "(السيوطي، 1983، 185). بل كان ابن سلام كنز من كنوز إقليم خراسان. قال أحمد بن الهيثم الشاشي:" بخراسان كنزان : كنز عند محمد بن سلام البيكندي ، وكنز عند إسحاق بن راهويه "(الذهبي، 1985، 628).

ومن الجدير بالذكر، أن علاقة ابن سلام بعلماء عصره كانت طيبة، على الرغم من اختلاف المذهب الفقهي. ومنها ـ على سبيل المثال ـ علاقته بشيخ الأحناف ببخارى، الإمام أحمد بن حفص(الذهبي، 158)، قال الذهبي:" وكان بينه وبين أحمد بن حفص مودة وأخوة ، وكل واحد منهما مخالف للآخر في المذهب"(الذهبي، 361).

ذاعت شهرة ابن سلام البيكندي في العالم الإسلامي بصفته محدث ثقة، فأقبل طلاب العلم عليه، ينهلون من علمه، ويتعلمون من خُلقه. بل أستطيع القول: إن ابن سلام قد نجح في تكوين حركة علمية في مدينة بخارى، حببت إلى الطلاب دراسة علم الحديث وعلومه، فأنجبت لنا هذه الحركة كثير من أئمة علم الحديث، يأتي في مقدمتهم الإمام محمد بن إسماعيل البخاري؛ الذي روي عن شيخه ابن سلام في كتابه : " الجامع الصحيح"، ومحمد بن إبراهيم البكري(السمعاني، 434)، وعبيد الله بن واصل(الذهبي،9)، وأبو عمر محمد بن بُجير السمرقندي(الذهبي، 628) ، وطفيل بن زيد النسفي(الصفدي، 97) ، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي(ابن حجر،189) ، وغيرهم من أئمة علم الحديث.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن ابن سلام البيكندي: "صَنَّف في كل باب من أبواب العلم"(السيوطي، 185)غير أنهم لم يذكروا لنا أسماء مُصَنَّفاته، ولعل التاريخ يجود علينا بالعثور على بعض هذه المُصَنَّفات فنقف على طريقته في التأليف.

توفى ـ رحمه الله تعالى ـ يوم الأحد لسبع مضين من صفر سنة [225 هـ / 839 م](السمعاني،434)، وذكر غُنْجَار في كتابه ـ المفقود ـ " تاريخ بخارى": أنه توفى بمصر(المقريزي، 714).

صفوة القول، أن ابن سلام البيكندي يعد أقدم من رحل في طلب العلم إلى مصر، وقد نجح في تكوين حلقة علمية كبرى في بخارى، أنجبت لنا هذه الحلقة كثير من أئمة الحديث العظام، وكانت في نفس الوقت تمهيدًا لظهور المُصَنَّفات الكبار في السُّنَّة النبوية، من أمثال: صحيح البخاري وسنن الدارمي وغيرهما.

وممن رحل إلى مصر من بلاد ما وراء النهر فدخلها في ظل عصر الولاة، المحدث عبد الله ابن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام ، المعروف بالإمام الدارمي(البلاذري، 17) السمرقندي. من أصول عربية، فقد هاجر بعض أجداده إلى بلاد ما وراء النهر عقب الفتح الإسلامي لها على يد قتيبة بن مسلم الباهلي [49 ـ 96 هـ / 669 ـ 715 م]، ومن الجدير بالذكر، أن قبيلة تميم شاركت في جيش قتيبة بن مسلم بنحو عشرة آلاف مقاتل(ابن الأثير، 495). وكان أول مَن استقر منهم في بلاد ما وراء النهر، خبيب بن عبيد(السمعاني، 307) قائد بني تميم في جيش قتيبة، وكان له عقب في هذه البلاد.

ولد الدارمي سنة [181 هـ / 797 م] في مدينة سمرقند ، حفظ القرآن الكريم صغيرًا ، ثم حُبِّب إليه حفظ الحديث(البغدادي، 29) ، فسمع من شيوخ بلاد ما وراء النهر، ثم خرج إلى إقليم خراسان، وطوَّف بأرجاء العالم الإسلامي، فدخل بغداد، وبلاد الشام، وبلاد الحجاز، ومصر(الذهبي، 90)، فسمع من علماء هذه الأقطار، ويطول بي الحديث لو ذكرتُ شيوخه بالتفصيل، اكتفى بذكر بعضهم، ومنهم : يزيد بن هارون، وعبد الله بن موسى، ومحمد بن يوسف الفريابي، ويعلى بن عبيد، وجعفر بن عون، ويحيى بن حسان التنيسي، وأبي المغيرة الحمصي(الذهبي، 179) ، وغيرهم.

كان الإمام الدارمي ذكيًا فطنًا، حظى بثناء العلماء المعاصرين له، قال إسحاق بن داود السمرقندي: قدم قريب لي من الشاش. فقال : أتيت أحمد بن حنبل، فجعلت أصف له ابن المنذر، وجعلت أمدحه. فقال: ابن حنبل لا أعرف هذا قد طالت غيبة إخواننا عنا، ولكن أين أنت عن عبد الله بن عبد الرحمن عليك بذاك السيد. ثم كررها ثلاث مرات(البغدادي، 29). وهذه شهادة عظيمة خاصة إذا كانت صادرة من الإمام أحمد بن حنبل. بل أكثر من ذلك، كان الإمام أحمد يوثق من وثقه الدارمي، قال عبد الصمد بن سليمان البلخي: سألت أحمد بن حنبل عن يحيى الحماني، فقال : تركناه لقول عبد الله بن عبد الرحمن فيه؛ لأنه إمام(الذهبي، 181). وقال ابن حبان: " كان الدارمي من الحفاظ المتقنين، وأهل الورع في الدين ممن حفظ وجمع وتفقه وصَنَّف وحدث"(ابن حبان، 364) ، وقال

الخطيب البغدادي: " كان من الرحالين في الحديث، والموصوفين بجمعه وحفظه والاتقان مع الثقة والصدق والورع والزهد"(البغدادي، 29).

ومن ألطف ما يروى في الثناء على الدارمي، أن شيخه محمد بن بشار، قال: " حفاظ الدنيا أربعة: أبو زرعة بالرَّيِّ، ومسلم بن الحجاج بنيسابور، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي بسمرقند ، ومحمد بن إسماعيل البخاري ببخارى "(ابن عساكر،226) وعلى ذلك تكون بلاد ما وراء النهر قد جمعت نصف حفاظ العالم حينئذ لوجود الدارمي والبخاري بها. قال أبو حاتم:" الدارمي ثقة صدوق"، وقال أيضًا:" هو إمام أهل زمانه "(الذهبي، 90).

كان للإمام الدارمي دور علمي كبير في إثراء الحركة العلمية في بلاد ما وراء النهر، وخاصة في علم الحديث، فقد رحل إليه طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ليأخذوا عنه؛ وينهلوا من علمه الغزير، خاصة إذا علمنا أن الإمام قد انفرد برواية حديث أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله (ﷺ): " نعم الإدام الخل .... "(الدارمي، 1301)، فكان العلماء والمحدثون يرحلون إلى سمرقند من أجل سماع هذا الحديث من الإمام الدارمي مباشرة.

وكان من أشهرهم، بندار بن بشار [إبراهيم بن هاني بن خالد بن يزيد بن المهلب]، ومحمد بن يحيى الذهلي [172 ـ 258 هـ / 788 ـ 872 م] ، ورجاء بن مرجي الحافظ ، ومسلم بن الحجاج [204 ـ 261 هـ / 820 ـ 875 م] ، وأبو عيسى الترمذي [209 ـ 279 هـ / 824 ـ 892 م]، وجعفر بن محمد الفريابي(النسفي، 10) [207 ـ 301 هـ / 822 ـ 913 م]، كما سمع منه صالح بن محمد المعروف بجزرة [210 ـ 293 هـ / 825 ـ 906 م]، وعبد الله بن أحمد بن حنبل [213 ـ 290 هـ / 828 ـ 903 م]، ومحمد بن عبد الله الحضرمي المعروف بمطين(الذهبي، 567) [202 ـ 297 هـ / 817 ـ 910 م]، كما حدث عنه: عيسى بن عمر السمرقندي، راوي مسنده، وعبد بن حميد بن نصر الكشي [المتوفى عام 249 هـ / 863 م](البغدادي، 29) وغيرهم.

هكذا أستطيع القول، إن الإمام الدارمي قد " أظهر علم الحديث والآثار بسمرقند ، وذب عنها الكذب"(المقريزي، 416) ، بل على حد وصف ابن حبان له:" أظهر السُّنَّة في بلده، ودعا إليها، وذب عن حريمها ، وقمع من خالفها"(ابن حبان، 364). قال ابن حجر: " كان الدارمي كاملاً ، فقيهًا ، عالمًا"(ابن حجر، 522). وقال محمد بن إبراهيم الشيرازي : " كان الدارمي على غاية من العقل والديانة ، ممن يضرب به المثل في الحلم والدراية والحفظ والعبادة والزهادة "(الذهبي، 179).

هذا، ولم يقتصر دور الإمام الدارمي في تعليم الطلاب علم الحديث، والذب عن السُّنَّة المُطَّهرة ، بل صَنَّف في كثير من العلوم، فكان من أشهر مُصَنَّفاته على الإطلاق" المسند "(كحالة، 71) أو " السنن " في الحديث، وقد وصل إلينا هذا المُصَنَّف.

وقبل الحديث عن سنن الدارمي، أقول: كان اهتمام المشتغلين بالحديث ـ قبل الدارمي ـ منصرفًا ـ في المقام الأول ـ إلى كتابة الروايات. وهو ما عرف بمصطلح " تقييد العلم " وإلى جمع النصوص المتفرقة ، وهو ما عرف بمصطلح " التدوين" وإلى تأليف رسائل مفردة لتحقيق هدف بعينه. كان ذلك في العصر الأموي. وفي أوائل العصر العباسي، رتبت المادة ترتيبًا مبوبًا حسب الموضوعات المختلفة، وهو ما عرف بمصطلح " تصنيف الحديث ". أما في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، فقد رتبت المادة وفق أسماء الصحابة الذين أخذوا عن الرسول(ﷺ) فظهرت كتب" المسانيد" وكانت ـ عادة ـ تحمل عناوين، مثل: " مُصَنَّف " و " سُنَّنَ " و "جَامع"(ابن حجر، 8).

أما الدارمي فقد جمع في سننه أحاديث غير متعلقة بالفقه ، ولكن كتابه لم يكد يبلغ مع ذلك ثلث الكتب الستة ، ولعله ـ رحمه الله تعالى ـ قد أراد أن يخدم الفقه بتصنيف كتابه كما فعل الإمام البخاري. فذكر في كل باب إشارات عملية إلى مصادر الاستنباط الفقهي وطرفه. وهو يهتم ـ أيضًا ـ في كل حديث بالبحث عن ثقة إسناده ، وتعديل رجاله(بروكلمان، 212). قال الصفدي:" كان الدارمي من أوعية العلم يجتهد ولا يقلد"(الصفدي، 127).

ومع أن سنن الدارمي ـ والحق يقال ـ لم ترق إلى جانب الصحاح السِّتَّة، حيث لم تبلغ مبلغ هذه الصحاح ، ولم تلق ما لقيته من القبول. ولعل ذلك يرجع إلى طابع الاجتهاد والاستقلال في الرأي ، وربما إلى قلة مادته أيضًا، فما عاق هذا الكتاب أن ينال من الاعتراف به والقبول له ما نالته الصحاح السِّتَّة.

ومع كل ذلك ، فقد امتدح كثير من العلماء هذا الكتاب ، ومنهم : العلامة العلائي، فقال : " لو قدم مسند الدارمي بدلاً من ابن ماجة ، فكان سادسًا لكان أولى .... ". وقال بعض العلماء : " كتاب الدارمي أحرى وأليق بجعله سادسًا للكتب، لأن رجاله أقل ضعفًا، ووجود الأحاديث المتكررة والشاذة نادرة فيه، وأسانيده عالية، وثلاثياته أكثر من ثلاثيات البخاري".

إلى جانب المسند ، صَنَّف الإمام الدارمي كتابًا في " الثلاثيات "(حاجي خليفة، 522) و" التفسير "، لم يصلنا منها شيئًا. قال الذهبي: " كان [الدارمي] على غاية العقل ، ونهاية الفضل يُضرب به المثل في

الديانة والحلم والرزانة والاجتهاد والعبادة، والزهادة والتقلل. وصنف " المسند" و"التفسير" و"الجامع"(الذهبي، 179).

توفى الإمام الدارمي ـ رحمه الله تعالى ـ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين عامًا ، عصر يوم الترويه، ودفن يوم الجمعة يوم عرفة وذلك سنة [255 هـ / 869 م](السمعاني، 441) بعد أن أثرى الحياة العلمية في بلاد ما وراء النهر، فقد سعدت به سمرقند ، حيث جعل منها مركزًا للعلم والعلماء.

ومن الجدير بالذكر، أن الإمام البخاري عندما جاءه نبأ وفاة الإمام الدارمي بكى واسترجع، وجعلت دموعه تسيل على خديه ، وهو يردد :

إن تبقَ تَفْجَعْ بالأحِبة كُلَّهمْ * وفناءُ نفسِك لا أبالك أفْجَعُ(المقريزي، 417).**

ويقال: إن الإمام البخاري ما قال الشعر إلا ما جاء في حديثه وهذه المرة. وفي هذا دليل واضح على منزلة الإمام الدارمي عند الإمام البخاري. قال رجاء بن مرجي: " رأيت سليمان الشاذكوني، وإسحاق بن راهويه ، وسمي جماعة . ثم قال: فما رأيت أحفظ من عبد الله الدارمي"(الذهبي، 228). رحم الله تعالى الإمام الدارمي ، على ما قدم للأمة الإسلامية من علم نافع، فقد كان بحق جسرًا عبر عليه علم الحديث من مصر إلى بلاد ما وراء النهر.

الدولة الطولونية في مصر(254 ـ 292هـ/ 868 ـ 905م):

نبغ في عهد الدولة الطولونية(254 ـ 292هـ/ 868 ـ 905م) عدد كبير من المُحّدثين المصريين، جعلت عددًا كبيرًا من طلاب علم الحديث من مختلف بلدان العالم الإسلامي يرحلون إلى مصر للأخذ عنهم. وتأتي بلاد ما وراء النهر في مقدمة بلدان العالم الإسلامي التي رحل سبعة من محدثيها إلى مصر ـ خلال تلك الفترة ـ للأخذ عن علمائها.

يأتي في مقدمة هؤلاء، عَلم المُحِّدثين، وأمير المؤمنين في علم الحديث ، سابق زمانه وفرد أقرانه ، إنه الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه ، أبو عبد الله الجُعْفي البخاري(ابن تغري بردي، ص 25).

كان بَرْدزبه ـ الجد الأعلى ـ للبخاري فارسي الأصل ، عاش ومات مجوسيًا. وكان أول من أسلم من أجداد البخاري المغيرة ، وكان إسلامه على يد " اليمان الجعفي" والي بخارى آنذاك ، فانتمى إليه(ابن خلكان،41).

لم تمدنا المصادر التاريخية بشيء يذكر عن جده إبراهيم. أما أبوه إسماعيل، فكان أحد العلماء الورعين، رحل في طلب العلم فسمع مالك بن أنس، وحماد بن زيد، وصالح بن المبارك، كما حدث عن

أبي معاوية وجماعة غيرهم. وعنه أخذ كثير من طلاب العلم، ومنهم : أحمد بن حفص(السبكي، 213) ، وجماعة من العراقيين.

كان إسماعيل ورعًا ، خاشعًا ، يخاف الحرام ، ويخشى الله تعالى ويتقه . قال حين حضرته الوفاة : " لا أعلم في جميع مالي درهمًا من شبهة "(ابن العماد،134). ولعل ذلك يوضح لنا أن البخاري نشأ في بيئة علمية ، فأبوه كان محدثًا كبيرًا ، ولا يخفى علينا ما للبيئة من تأثير على الإنسان.

ولد البخاري في مدينة بخارى بعد صلاة الجمعة في ثالث عشر من شوال سنة [194 هـ / 809 م]. توفي والده وهو صغير ، فنشأ في حجر أمه ، وكانت امرأة تقية نقية ، لا تقل ورعًا عن أبيه. روى غُنْجَار في ـ كتابه المفقود ـ " تاريخ بخارى ": إن محمد بن إسماعيل البخاري ذهبت عيناه في صغره فدعت أمه الله تعالى كثيرًا حتى رأت الخليل إبراهيم عليه السلام في المنام ، فقال لها : "يا هذه ، قد رد الله على ابنك بصره بكثرة دعائك أو بكائك"(ابن الجوزي، 345).

رُزِق البخاري حب العلم منذ صغره ، فحفظ القرآن الكريم صغيرًا وحُبب إليه علم الحديث منذ نعومة أظفاره . قال عن نفسه: " أُلهمت حفظ الحديث في المَكْتب ولي عشر سنوات أو أقل ثم خرجت من المَكْتب بعد العشر فجعلت أختلف إلى الداخلي"(البغدادي، 324). ومن طريف ما يذكر حول عبقرية البخاري في صغره، أنه راجع شيخه" الداخلي" في إحدى مسائل العلم. فقد ذكرت المصادر التاريخية ، أن البخاري ـ وكان غلامًا ـ سمع الشيخ يقول: عن سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم. فقال: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم. فانتهره الشيخ، فقال له البخاري: ارجع إلى الأصل إن كان عندك. فدخل فنظر فيه ثم خرج، فقال: كيف هو يا غلام ؟ قال: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم فأخذ القلم منه وأصلح كتابه به. وقال: صدقت(ابن حجر، 252). سُئل البخاري: ابن كم كان ذاك؟! ، قال: ابن إحدى عشرة سنة.

وإن كان في هذا دلالة على عبقرية البخاري، إلا إنه يثبت مدى أمانة الشيخ، الذي صحح خطأه من تلميذه أمام طلابه. ولا شك أن هذه التربية العلمية قد أثرت في حياة الإمام البخاري بعد ذلك.

لم يكتفِ البخاري بالسماع من هذا الشيخ ، بل طوّف أنحاء بخارى للسماع من علمائها، ومنهم: محمد بن سلام البيكندي، ومحمد بن يوسف البيكندي، وعبد الله بن محمد المسندي، وهارون ابن الأشعث، وطائفة غيرهم(السبكي،213). وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره حفظ كتب عبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح وغيرهم من أهل الرأي.

بدأ الإمام البخاري رحلته العلمية مبكرًا ، إذ خرج مع أمه وأخيه أحمد لأداء مناسك الحج في مكة. وبعدما رجع أحمد بوالدته إلى بخارى، ظل البخاري مجاورًا بمكة ليسمع بها العلم وهو ابن ستة عشر عامًا. ومن مكة رحل إلى المدينة المنورة للأخذ عن علمائها، ومن أشهرهم عبد العزيز الأويسي، ومطرف بن عبد الله(ابن الجوزي، 115) ، وغيرهم.

وعلى ذلك يكون الإمام البخاري قد بدأ أول سماعه للعلم خارج مسقط رأسه ـ بخارى ـ بالحرمين الشريفين، واستطاع خلال ستة أعوام أن يُحصل كثيرًا من علم الحديث، ثم انطلق في سياحته العلمية متنقلاً عبر الأقاليم والأقطار.

تتابعت رحلات البخاري وسفره في سبيل طلب علم الحديث والرواية حتى شملت أغلب الحواضر العلمية في وقته واستغرقت معظم حياته. فسمع ببلخ : مكي بن إبراهيم، ويحيى بن بشر الزاهد، وقتيبة بن سعيد. وبمرو سمع علي بن الحسن بن شقيق، وغيره. وبنيسابور سمع يحيى بن يحيى، وبشر بن الحكم، وإسحاق بن إبراهيم بن راهويه، وغيرهم. وبالرَّيِّ سمع إبراهيم بن موسى. وبالشام سمع محمد بن يوسف الفريابي، وآدم بن أبي إياس، والحكم بن نافع، وأقرانهم(السبكي، 212).

ثم دخل الإمام البخاري العراق وطاف في ربوعها وسمع من علمائها. فسمع محمد بن عيسى الطباع، ومحمد بن سائق، وأحمد بن حنبل(الصفدي، 148) ، وغيرهم. وبواسط سمع حسان بن حسان ، وحسان بن عبد الله . وبالبصرة سمع صفوان بن عيسى، وعفان بن مسلم، ومحمد بن سنان. وبالكوفة سمع عبيد الله بن موسى، وأحمد بن يعقوب، والحسن بن الربيع، وخالد بن مخلد، وغيرهم. وبالجزيرة سمع أحمد بن عبد الملك الحراني، وأحمد بن يزيد الحراني، وإسماعيل بن عبد الله الرقي، وأقرانهم.

وكان من الطبيعي أن يرحل الإمام البخاري إلى مصر، ليأخذ عن علمائها من أمثال: عثمان بن صالح، وسعيد بن أبي مريم، وعبد الله بن صالح، وأحمد بن صالح، وأحمد بن شبيب، وأصبغ بن أبي الفرج، وسعيد بن عيسى، وسعيد بن كثير بن عفير، ويحيى بن عبد الله بن بكير(ابن خلكان، 41) ، وأقرانهم.

تمتع البخاري بشهرة كبيرة بين أهل مصر، فأحبوه وأقبلوا عليه، ينهلون من علمه. حتى قال أحدهم: سمعت أكثر من ثلاثين عالمًا من علماء مصر يقولون حاجتنا في الدنيا النظر إلى محمد بن إسماعيل. وقال عبد الله بن محمد بن سعيد: سمعت علماء مصر يقولون: ما في الدنيا مثل محمد بن إسماعيل في المعرفة والصلاح(ابن حجر، 510).

هكذا كانت رحلة الإمام البخاري في الأمصار الإسلامية: مكة . والمدينة . وبغداد . و واسط . والبصرة . والكوفة . ودمشق . وحمص . وقيسارية . وعسقلان . وخراسان . ونيسابور . ومرو . وهراة . وبخارى . ومصر. وغيرها.

وجدير بالذكر أن الإمام البخاري ربما دخل المدينة الواحدة أكثر من مرة، يقول عن نفسه: " دخلتُ إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم مرة دخلت إلى الكوفة وبغداد مع المُحِّدثين"(القاسمي، 15).

رُزق الإمام البخاري بخصلتين بارزتين مكنتاه من أن ينشر علمه. أولهما: حافظة قوية لاقطة، خاصة في علم الحديث، حتى ذكر بعض الرواة أنه كان يحفظ سبعين ألف حديث، وقيل: مائتي ألف حديث(أبو شهبه، 51) وهي روايات ـ إن صحت ـ تدل على مدى عبقرية الإمام البخاري ، وعلى قدرته الفائقة في الحفظ(أمين، 112) استعان معها بكتابة العلم وتقييده. حتى قال عنه وراقه: " كان يقوم في الليل مرارًا يأخذ القداحة فيورى نارًا ويسرج ، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه "(ابن كثير، 26). وكثيرًا ما جرت للإمام مناظرات علمية في كل بلد نزل فيها، مثل: بغداد، والبصرة، ونيسابور، وخرج في كل منها الإمام حافظًا، عالمًا، شهد له أعداءه قبل أصدقائه، بقوة ذاكرته، وشدة حفظه(البغدادي، 335).

ثانيهما: مهارته الهائلة في معرفة الرجال ونقدهم، والذي ساعده على ذلك تأليفه كتاب " التاريخ الكبير"، حتى قال عن نفسه: " قل اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة "(ابن العماد، 134) ، ولكنه في نفس الوقت ـ والحق يقال ـ كان عفيف اللسان، مؤدب التعبير، وأقصى ما قاله في حق رجل هو "منكر الحديث ".

ذاعت شهرة الإمام البخاري في الآفاق، فكان من الطبيعي أن يلتف حوله الطلاب في كل بلد نزل فيها، ليأخذوا عنه، ويسمعوا منه. وجدير بالذكر، أن الإمام سمع منه شيوخه، ومن أشهرهم: عبد الله بن محمد المسندي، وعبد الله بن المنير، وإسحاق بن أحمد السرماوي، ومحمد بن خلف بن قتيبة، وغيرهم. كما سمع منه أقرانه، ومنهم: أبو زرعة الرازي، وأبو حاتم الرازي، وإبراهيم الحربي، وصالح بن محمد جزرة، والإمام مسلم بن الحجاج؛ الذي قبَّل الإمام البخاري بين عينيه، وقال:" دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المُحَدِّثين وطبيب الحديث في علله "(ابن الجوزي، 117).

كما سمع منه الإمام محمد بن نصر المروزي، والإمام النسائي، والإمام أبو عيسى الترمذي وغيرهم. هؤلاء هم أشهر من سمع من الإمام مباشرة. أما من أخذ عنه فخلق لا يمكن حصرهم. فقد ذكر

المؤرخون، أن عدد من سمع كتاب الصحيح من البخاري: تسعين ألفًا، وكان يحضر مجلسه أكثر من عشرين ألفًا يأخذون عنه(البغدادي، 328).

مُصَنَّفاته :

صَنَّف الإمام البخاري كثيرًا من الكتب منها ما هو مطبوع أو مخطوط أو مفقود(سزكين، 225)، ومن أشهرها: كتاب" الجامع الصحيح " وهو أشهر مُصَنَّفات السُّنَّة على الإطلاق. ويرجع بعض المؤرخين سبب تأليف هذا الكتاب إلى الإمام إسحاق بن راهويه الذي قال لطلابه: " لو جمعتم كتابًا مختصرًا لصحيح سُنَّة رسول الله(ﷺ)". قال البخاري: فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع كتاب" الجامع الصحيح "، ثم قال عن نفسه:" ما أدخلت في كتاب الجامع الصحيح إلا ما صح"(السبكي، 221).

هذا، وقد استمر الإمام في جمعه ما يقرب من ستة عشر عامًا ، ولا أستبعد أن يكون الإمام قد كتب جزءًا منه في مصر. فهو القائل: " رب حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام، ورب حديث سمعته بالشام كتبته بمصر"(ابن حجر، 514). ومن الجدير بالذكر، أن الإمام قد عرض كتابه المذكور على محدثي عصره من أمثال: يحيى بن معين [المتوفى عام: 233 هـ / 847 م]، وعلي بن المديني [المتوفى عام: 235 هـ / 948 م]، وأحمد بن حنبل [المتوفى عام: 241 هـ / 805 م] فحسنه جميعهم.

أما عن الرواة الأول المجازين لرواية الجامع الصحيح، فهم :

أ- أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفربري [المتوفى عام: 320 هـ / 932 م] .

ب- إبراهيم بن معقل النسفي [المتوفى عام: 295 هـ / 907 م] .

ت- حماد بن شاكر النسوي [المتوفى عام: 290 هـ / 902 م] .

ث- أبو طلحة منصور بن محمد بن علي البزدوي [المتوفى عام: 329 هـ / 940 م] .

ج- أبو عبد الله الحسن بن إسماعيل بن محمد المحاملي [المتوفى عام: 330 هـ /941 م].

يقول ابن خلدون: " البخاري إمام المُحِّدثين في عصره ، خرج أحاديث السُنَّة على أبوابها في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين ، واعتمد فيها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه"(ابن خلدون، 941).

وربما لا انحرف عن الصواب، إن قلت: إن الإمام البخاري هو عالم الحديث الذي طور الإسناد، وأول محدث يوجه الأنظار إلى أهمية المتون خلاف الإسناد، وعُد كتاب البخاري ـ بحق ـ أصح كتب الحديث، ولم ينازع أحد في أفضليته(أمين ، 116).

ونظرًا لهذه المكانة التي تمتع بها كتاب " الجامع الصحيح " بين كتب السُّنَّة . فقد حمَّل العلامة ابن خلدون علماء الأمة أمانة شرح هذا الكتاب، حيث قال : " شرح كتاب البخاري دَين على الأمة "(ابن خلدون، 943). وقد يسر الله تعالى للأمة علماءً أفذاذًا أدوا هذا الدَين وقدموا شروحًا لهذا الصحيح وصلت إلى اثنين وثمانين شرحًا ، كما يقول صاحب كشف الظنون(حاجي خليفة، 544).

وأخيرًا ، فكما شهدت مصر قدوم البخاري إليها ، وإقامته بها مدة ، وجمعه الصحيح من بعض علمائها. فقد حظيت بشرف أول طبعة لهذا الكتاب على أرضها، بأمر من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني [1293 ـ 1327 هـ / 1876 ـ 1909 م] الذي أرسل الكتاب ليُطبع في بولاق سنة [1313 هـ /1895 م] وعنه أخذت باقي الطبعات(سزكين، 227).

ومن كتبه أيضًا، كتاب:" التاريخ الكبير"، و:" التاريخ الأوسط"، و" التاريخ الصغير"، و" الضعفاء الصغير"، و:" التاريخ في معرفة رواة الحديث، ونقلة الآثار والسنن وتمييز ثقاتهم من ضعفاتهم وتاريخ وفاتهم"، و:" التواريخ والأنساب"، و" الكنى "، و" الأدب المفرد"، و" رفع اليدين في الصلاة"، و" القراءة خلف الإمام"، و" خلق أفعال العباد والرد على الجهمية"، و" العقيدة " أو " التوحيد"، و" الجامع الكبير"، و" المسند الكبير"، و" التفسير الكبير"، و" أخبار الصفات"، و" الأشربة"، و" الهبة"، و" أسامي الصحابة " ، و" الوحدان"، و "المبسوط "، و" العلل"، و" الفوائد "، و" قضايا الصحابة" ، و" سنن الفقهاء"، و" الجامع الصغير"، و " الثلاثيات".

وفاته:

يطول بنا القول لو ذكرتُ ثناء العلماء على الإمام البخاري(البغدادي، 336) ، وفقهه(القاسمي، 34)، ومذهبه(السبكي، 212)، والمحنة التي تعرض لها في نيسابور(ابن كثير، 26) وبخارى، فحياة الإمام تستحق بحثًا مفردًا. وعلى كل حال، عندما هم الإمام بالخروج من بيكند إلى قرية خرتنك إحدى قرى سمرقند(السمعاني، 341) ، رفع يديه ـ بعد أن فرغ من صلاة الليل ـ يقول في دعائه:" اللهم قد ضاقت على الأرض بما رحبت فاقبضني إليك"، فما تم الشهر حتى توفى ـ رحمه الله تعالى ـ ليلة عيد الفطر سنة [256 هـ / 870 م](الصفدي، 149) عن عمر يناهز اثنتين وستين عامًا.

هذا ، وقد أكد كثير ممن حضر وفاة الإمام ، أن رائحة المسك كانت تفوح من قبره. كما ذُكرت له كثير من الرؤى التي تدل على علو منزلته عند الله تعالى(ابن الجوزي، 119). قال الحافظ ابن كثير :" وقد ترك رحمه الله بعده علمًا نافعًا لجميع المسلمين، فعلمه لم ينقطع ، بل هو موصول بما أسداه من الصالحات في الحياة"(ابن كثير، 28).

المحدث الثاني الذي دخل مصر في ظل الدولة الطولونية، محمد بن إسحاق البيكندي، والذي رحل من بلاد ما وراء النهر إلى بغداد، فسمع بها أئمة العلم، ثم رحل إلى مصر وأقام بها فترة ليست بالقليلة، أخذ عن محدثها عبد الرزاق وغيره(المقريزي، 297). ثم خرج إلى مكة ومات بها في شوال سنة[262 هـ / 875 م]، ولم تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عنه.

ويبدو أن مدينة بيكند قد حازت قصب السبق في رحلة محدثيها إلى مصر، فهذا هو العَلم الثالث من أعلام هذه المدينة الذي رحل إلى مصر ودخلها في ظل الدولة الطولونية ـ أيضًا ـ، إنه المحدث: إسماعيل بن حمدويه البيكندي البخاري.

لم تذكر لنا المصادر التاريخية شيئًا عن سنة ميلاده ، ولكنها أكدت على أنه حفظ القرآن الكريم صغيرًا ، ثم سمع الحديث من أعلام بلاده ، من أمثال: محمد بن سلام البيكندي ، وأبي رجاء سعيد بن حفص البخاري(الذهبي، 308) ، وغيرهما. ثم بدأ رحلته إلى إقليم خراسان المتاخم لبلاد ما وراء النهر، وبعد أن طوّف في أقاليمه رحل إلى دمشق(ابن عساكر، 391) ، ومنها إلى مدينة الرملة(ابن حبان، 105) ، وعنها إلى مكة ، ثم عنَّت له الرحلة إلى مصر(ياقوت، 533) فاستقر بها فترة ليست بالقليلة، سمع من علمائها وحدث بها، قال ابن يونس في كتابه ـ المفقود ـ " تاريخ مصر": " قدم (ابن حمدويه) إلى مصر وحدثنا بها"(العيني، 49) ، ثم عاد أدراجه إلى الرملة ليتخذها مقرًا له.

أما عن الأثر العلمي للإمام ، فلم تذكر لنا المصادر التاريخية مُصَّنَفًا علميًا يحمل اسمه، ولكنها ذكرت لنا كثير من تلامذته، ومن أشهرهم: أبو الميمون بن راشد البجلي(ابن عساكر، 391) ، وأبو نُعيم عبد الملك بن محمد بن عدي الجرجاني ، وأحمد بن زكريا بن يحيى بن يعقوب المقدسي، وأحمد بن عمرو بن جابر الرملي، ومحمد بن حمدون بن خالد النيسابوري(ياقوت، 533) ، وعلي بن محمد بن أبي سليمان الصوري، ومحمد بن يوسف بن بشر الهروي(الذهبي، 308) ، وعلي بن محمد بن حاتم القرميسيني. وأبي جعفر الطحاوي من مصر، والذي روي عنه في كتابه مشكل الآثار".

أطلتُ القول في ذكر تلاميذ الإمام إسماعيل بن حمدويه ، لأثبت صحة ما ذهبت إليه ، وهو: أن الأثر الأعظم للإمام كان في التعليم. ولو دققنا النظر في قائمة تلاميذه لوجدناها تضم معظم أرجاء العالم الإسلامي: جرجان، بيت المقدس، الرملة، نيسابور، صور، هراة، مصر، قرميسين، وغيرها.

توفى ـ رحمه الله تعالى ـ في مدينة الرملة سنة [273 هـ / 886 م] بعد رحلة طويلة مع علم الحديث، الذي بثه بين تلامذته ، لينقلوه عنه ويعلموه الناس، وكان من أبرزهم عالم مصر وفقيهها الإمام الطحاوي.

ومن بيكند ـ أيضًا ـ يأتي المحدث الرابع إلى مصر؛ عُزير(السهمي، 282) بن الأحنف بن الفضل، المكني بأبي عصمة البخاري. سمع ببلده بخارى، ورحل إلى بلخ فسمع يحيى بن موسى خت البلخي، وإبراهيم بن هارون البلخي، وبنيسابور سمع قتيبة بن سعيد(الذهبي، 224) ، وغيره. ثم رحل إلى بغداد وسمع محمد بن الصباح الجرجرائي، ونصر بن علي الجهمي، وبدمشق سمع هشام بن عمار، ودحيم بن إبراهيم الدمشقي(ابن عساكر، 338). ثم عنَّت له الرحلة إلى مصر فدخلها في ظل الدولة الطولونية، وسمع بها أحمد بن صالح المصري، وغيره .

غادر عُزير مصر ليستقر في جرجان ، ويقيم فيها نهضة علمية كبرى في مسجدها الجامع، فالتف حوله طلاب العلم، وخاصة أهل الحديث، ينهلون من علمه وأدبه وفضله. فروى عنه من أهل جرجان: أبي الحسن أحمد بن عبد الله ، وأبو جعفر كميل بن جعفر بن كميل، ومحمد بن أحمد بن إسماعيل الصرامي، وأبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، وغيرهم. كما رحل إليه من بلخ كثير من طلاب العلم، أشهرهم: محمد بن محمد بن أحمد بن أبي عيسى الحافظ البلخي(ابن منظور، 50).

توفى أبو عصمة البخاري في سنة [288 هـ / 900 م](البغدادي، 322) بعد حياة حافلة بالتحديث. وبذلك أستطيع القول، إن أبا عصمة البخاري كان جسرًا ثقافيًا ربط بين مصر وبلاد ما وراء النهر وجرجان التي سعدت به فأقام بها. وهذا يؤكد إن طلاب العلم ـ وخاصة أهل الحديث ـ كانت جميع بلدان المسلمين وطنًا لهم، يقيمون بها أنَّ شاءوا، ويسكنون ويتعلمون وينشرون علمهم.

ومن المُحِّدثين المغمورين، الذين لم ينالوا حظًا من الشهرة ؛ المحدث محمد بن نصر بن عبد الرحمن، المعروف بـ " ميموس العطار"(الصفدي، 235) ، المكنى بأبي جعفر الشاشي. ولد في أرض الشاش ـ إحدى أقاليم بلاد ما وراء النهر ـ وسمع من علماء بلاده ، ثم خرج في طلب علم الحديث ـ كما هي عادة المُحِّدثين حينذاك ـ فدخل إقليم خراسان، وهراة، وجرجان، وبغداد(الذهبي، 27) ، ودمشق، وحمص، وأنطاكية(عساكر، 103) ، وسمع من معظم علماء هذه البلدان. ثم رحل إلى مصر فدخلها في

ظل الدولة الطولونية، وسمع من علمائها، من أمثال : محمد بن رميح المصري، وحرملة بن يحيى التجيبي(المقريزي، 337)، وغيرهم.

هذا، وقد طابت الحياة للإمام الشاشي في مصر فتزوج منها، وأقام فيها، ولم يرحل عنها. لذا فقد ذاع صيته بين المُحِّدثين، فالتف طلاب العلم حوله، يسمعون منه، ويأخذون عنه، وينهلون من علمه، ومن أشهرهم: الحسين بن علي بن الحسين، وسليمان بن أحمد الطبراني، وأبو بكر بن أبي داود، وأحمد بن إسحاق الطيبي، وغيرهم.

ومما يؤسف له أن مصادرنا التاريخية لم تمدنا بمعلومات وافية عن حياة الشاشي في مصر، غير إشارة لطيفة من الخطيب البغدادي وصفه فيها، بقوله:" كان صدوقًا"(البغدادي، 245). ويؤكد المقريزي على أن الشاشي ظل بمصر ولم يرحل عنها إلى أن توفى في شهر ربيع الأول، سنة [295 هـ / 907 م] ، وصلى عليه إمام أهل مصر في علم الحديث؛ الإمام أحمد بن شعيب النسائي، ودفن بجبل المقطم.

في سنة [213 هـ / 828 م]، ولد محمد بن عبد بن عامر بن مرداس التميمي، المعروف بأبي بكر الصُّغَدي في مدينة سمرقند، كما قال عن نفسه(ابن يونس، 209). سمع الصغدي من علماء بلاده، من أمثال: الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ومحمد بن سلام البيكندي. ثم رحل إلى خراسان، فسمع بنيسابور: يحيى بن يحيى النيسابوري، وإسحاق بن راهويه، وفي مدينة بلخ سمع: عصام وإبراهيم ابني يوسف البلخيين. وأخذ في مرو عن حيان بن موسى المروزي(ابن حجر، 271) ، وغيره. وبعد أن طوّف في إقليم خراسان، رحل إلى مدينة السلام(بغداد) فسمع من عالِمِها قتيبة بن سعيد(البغدادي، 386). كما دخل بلاد الشام وسمع من علمائها. وفي سنة [297 هـ / 909 م] رحل الصغدي إلى مصر للأخذ عن علمائها(ابن يونس، 209) ؛ نظرًا لما كانت تمتع به مصر من مكانة علمية رفيعة في علم الحديث. ليكون بذلك المُحَدِّث السادس من محدثي بلاد ما وراء النهر الذي يدخل مصر في ظل الدولة الطولونية.

على الرغم من الرحلة الطويلة التي قضاها الصغدي في طلب العلم، إلا أنه ـ على ما يبدو ـ لم يستفد منها. فقد طَعن في روايته كبار المُحَدِّثين(الذهبي، 633) والمؤرخين(المقريزي، 13) في البلدين، أعني بلاد ما وراء النهر ـ مسقط رأسه ـ ومصر؛ التي قضى بها شطرًا كبيرًا من عمره.

على كل حال، قيض الله تعالى للسُّنَّة النبوية رجالًا يدافعون عنها، ويذبون عن سندها ومتنها، ويفندون كل الشبهات التي ـ قد ـ تثار ضدها. آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، في إطاره الشرعي،

بحيث لا يترتب عليه منكر أكبر منه . قال جعفر بن الحجاج الموصلي: " قدم محمد بن عبد [الصغدي]علينا الموصل، وحدثنا بأحاديث مناكير، فاجتمع جماعة من الشيوخ، وصرنا إليه لننكر عليه. فإذا هو في خلق من المُحِّدثين والعامة، فلما بصر بنا من بعيد علم أنا جئنا لننكر عليه. فقال: حدثنا قتيبة عن ابن لهيعة عن أبي الزبير، عن جابر ﵁ أن رسول الله (ﷺ) قال: " القرآن كلام الله غير مخلوق"، قال جعفر: فلم نجسر أن نقدم عليه خوفًا من العامة ورجعنا"(ابن حجر، 271).

ومن هذه القصة يتضح لنا، كيف كان الصغدي وضاعًا للحديث، وكان يحتمي بعوام الناس، وكيف كان المحدثون يحاولون الإنكار عليه.

ومع ذلك؛ فقد ذكرت لنا المصادر التاريخية، أسماء بعض طلاب العلم الذين سمعوا من الصغدي، ولعلهم - وهم معذورون في ذلك - نظروا إلى أطيب ما في كلامه فأخذوا عنه، أو لعل بعضهم لم يصل إليه أقوال العلماء فيه، فمن ثم سمعوا منه؛ ولم يجرؤ أحد منهم على توجيه النقد إليه، ومن أشهرهم: أحمد بن عثمان بن الأدمي(الذهبي، 633) ، وأبو أحمد الإستراباذي(الذهبي، 296) ، وأبو إسحاق الأسدي؛ الذي قال عنه الذهبي:" تفرد بالرواية عن محمد بن عبد بن عامر السمرقندي"(الذهبي، 296).

وعلى الرغم من اتفاق المصادر التاريخية على تجريح الصغدي إلا إنها اختلفت في سنة وفاته . فذكر الحاكم النيسابوري - في رواية غريبة - إنه توفي سنة [292 هـ / 904 م] ، وهذا أمر مستبعد، لأن ابن يونس ذكر أنه دخل مصر سنة [297 هـ / 909 م]، وعلى ذلك، فمن المؤكد، أن الصغدي قد توفي بعد هذا التاريخ. وذكر ابن حجر- وهو ما أميل إليه - أن وفاته كانت في حدود الثلاثمائة من الهجرة(ابن حجر، 271).

مع العَلم الخامس من أعلام بيكند – التي حازت قصب السبق في رحلة محدثيها إلى مصر- يأتي محمد بن علي بن طرخان بن عبد الله بن جباش البيكندي(المقريزي، 303). المولود في عام [221 هـ / 836 م](كحالة، 190) بمدينة بيكند. حفظ القرآن الكريم في صغره، وحُبِّبَ إليه علم الحديث فسمع من علماء بلاده ، ثم عنَّت له الرحلة العلمية في طلب علم الحديث، فدخل بلخ، ثم طاف في مدن العراق: بغداد، البصرة، الكوفة. كما دخل دمشق، ثم رحل إلى مصر(عساكر، 359) فدخلها في ظل الدولة الطولونية، غير أنه لم يمكث بها طويلًا، ثم عاد أدراجه إلى مدينة بلخ ليتخذها مقرًا - أخيرًا - له.

أما عن شيوخه فهم كثر، اكتفي بذكر بعضهم، ومنهم: محمد بن الخليل البلاطي الخشني ، وقتيبة بن سعيد، ومحمد بن سليمان المشهور بـ " لوينا" ، وهشام بن عمار ، وزياد بن أيوب، والحسن بن محمد الزعفراني، وأحمد بن أبي بزة المكي(ياقوت ، 480) ، وغيرهم.

كان ابن جباش واسع الرحلة، عالي الهمة في طلب الحديث، حسن التصنيف. ولكن مما يؤسف له، أننا لم يصل إلينا مُصَنَّف واحد من مُصَنَّفاته ، مع أن الذهبي قال عنه: " كان حافظًا ، حسن التصانيف"(الذهبي، 194).

أخذ عن ابن جباش كثير من طلاب العلم ، ومنهم، ابنه: عبد الله بن محمد(السمعاني، 259) ، والحسن بن علي بن نصر بن منصور الطوسي، وعبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الفارسي، وأحمد بن محمد بن محمود بن نور البلخي، ومحمد بن أحمد الحافظ(الصفدي، 81) ، وغيرهم. توفي ـ رحمه الله تعالى ـ في شهر رجب [298 هـ / 911 م] ودفن ببلخ(المقريزي، 303).

هكذا، رأينا أنه في خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، قد رحل من بلاد ما وراء النهر إلى مصر تسعة من كبار علماء الحديث [خمسة منهم من مدينة بيكند وحدها] ، لم يوجه الطعن إلا إلى شخص واحد فقط ، وهذا قليل من كثير. وتثبت هذه الرحلات قوة ومتانة العلاقات الثقافية بين البلدين، والتي سوف تزداد في القرن القادم. ولا غرابة في ذلك، فإنه القرن الذي وصلت فيه الحضارة الإسلامية إلى أقصى ازدهارٍلها في كافة العلوم، وعلى رأسها. بالطبع ـ علم الحديث.

المبحث الثاني: الرحلة العلمية بين البلدين خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

يبدأ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بوفاة عالم مغمور من علماء سمرقند ، لم تذكر لنا المصادر التاريخية الكثير عنه ، إنه إبراهيم بن إسحاق بن عمر، المشهور بأبي إسحاق السمرقندي. والذي عاش معظم حياته في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وإن تأخرت وفاته إلى بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ـ كما سبقت الإشارة ـ ، لذا فقد ذكرته ضمن علماء هذا القرن.

بدأ السمرقندي حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم، ثم حُبِّبَ إليه علم الحديث، فسمع من علماء بلاده ، ثم رحل إلى مصر فدخلها في الفترة التي أعقبت سقوط الدولة الطولونية، فروى عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وسعيد بن محمد البيروتي، ومحمد بن عليّ بن داود، وعبد الرحمن بن محمد بن سلام، والربيع بن سليمان(النسفي، 10)، وغيرهم.

فضَّل السمرقندي العيش في مصر، ثم ما لبث أن اشتهر بين علمائها، فأقبل الطلاب عليه، يسمعون منه، ويأخذون عنه ، فكان من أشهرهم: عبيد الله بن الحسن بن إبراهيم الضراب، ومحمد بن القاسم بن شعبان المصري، وغيرهم(المقريزي، 93).

هذا، ولم يترك لنا السمرقندي مُصَنَّفًا في علم الحديث، ولعله قد اكتفى بتعليم الطلاب. توفى ـ رحمه الله ـ بمصر التي أحبها وعاش فيها، في شهر رمضان سنة [307 هـ / 919 م].

وفي نفس الفترة التاريخية، أعني بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية، رحل إلى مصر من محدثي مدينة سمرقند؛ عبد الجبار بن أحمد بن محمد بن هارون، المعروف بأبي القاسم السمرقندي(ابن يونس، 118). روي عن عبد الغني بن أبي عقيل، وجعفر بن مسافر، وجماعة سواهم. أقام أبو القاسم السمرقندي في مدينة تَنِيس بأرض مصر، ونشر علمه بين أبنائها. ظل السمرقندي في مصر حتى توفى في جمادي الأولى سنة[319 هـ / 931 م](الذهبي، 585).

وفي نفس الفترة التاريخية رحل من بخارى إلى مصر، المحدث المغمور، محمد بن أحمد بن حمدي بن قطن(المقريزي، 161) ، المكنى بأبي غالب البخاري، قال ابن يونس: " كتبتُ عنه"(ابن يونس،189) ، توفى بمصر عام [320 هـ / 932م]، وللأسف لم تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عنه.

الدولة الإخشيدية في مصر(323 ـ 358هـ/ 935 ـ 969م):

شهدت مصر في عصر هذه الدولة ـ رغم قصره ـ نشاطًا مزدهرًا في ميادين الآداب والعلوم. فقد تميز عهدهم بظهور عدد من أعلام المُحِّدثين من أبناء مصر كان لهم نشاط مرموق في علم الحديث مما جعل كثير من طلاب العلم يرحلون إليها للأخذ عنهم، والاستماع لهم، ويأتي في مقدمتهم، العباس بن عبد الله بن العباس، المعروف بالنخشبي(الذهبي، 384) ، المولود في مدينة نخشب[نسف](خلف، 251) إحدى مدن إقليم الصغد. حفظ القرآن الكريم في صغره، وطلب علم الحديث فبرع فيه، وسمع من معظم علماء بلاده، ثم عنَّت له الرحلة إلى مصر، فحدث بها عن الإمامين أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين(يعلي، 233). فأقبل طلاب العلم عليه للأخذ عنه، ويأتي في مقدمتهم؛ عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى المصري(البغدادي، 149) ، وغيره. قال عنه ابن يونس: " قدم مصر، وروى مناكير، وقد كتبتُ عنه "(اين يونس، 109). ظل النخشبي في مصر إلى أن توفي بها سنة [325 هـ / 936 م].

ومن محدثي سمرقند الذين رحلوا إلى مصر في ظل الدولة الإخشيدية، محمد بن الجنيد بن خلف السمرقندي، نزل مصر وسكن بها وسمع الحديث من علمائها، و" كان مُعَلِمًا صدوقًا "(المقريزي، 509) ، كما يقول المقريزي. توفى بمصر سنة[334 هـ / 945 م] ودفن بها.

وأتى من إقليم فرغانة إلى مصر، أحمد بن علي بن مقاتل، المعروف بأبي بكرويه بن الإخشيد، فدخلها في ظل الدولة الإخشيدية، وعاش فيها وأخذ علم الحديث عن علمائها، توفي بمصر(المقريزي، 543) ليلة النصف من شعبان سنة [343 هـ / 954 م]. وللأسف الشديد، لم تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عنه.

العَلم الثاني من أعلام مدينة نسف[نخشب] الذي رحل في طلب الحديث إلى مصر، فدخلها ـ أيضًا ـ في ظل الدولة الإخشيدية؛ محمد بن عثمان بن إبراهيم، المشهور بأبي علي النسفي الصائغي، نسبة إلى سكة الصاغة في مدينة نسف. كان النسفي فاضلاً ، حريصًا على طلب العِلم، فرحل من أجله إلى العراق، ومصر، والحجاز، وغيرها من الأمصار الإسلامية. سمع ببغداد أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي ، وبمصر كتب عن أبي بكر محمد بن سفيان بن سعيد المصري(السمعاني، 517) ، وغيرهم من أهل هذه الطبقة.

بعد هذه الرحلة الطويلة، عاد النسفي إلى مسقط رأسه نسف فحدث بها، وكان ثقة بين المُحِّدثين، سمع منه أشهر محدثي مدينة نسف ـ على الإطلاق ـ أبي يعلي بن خلف النسفي(الذهبي، 355). توفي الصائغي عام [344 هـ / 955 م] غريقًا في نهر جيحون.

أما المحدث عثمان بن محمد بن أحمد بن محمد بن هارون، المكنى بأبي عمرو السمرقندي، فقد ولد بمدينة سمرقند عام [250 هـ / 864 م](المقريزي، 196). حفظ القرآن الكريم في صغره ، ثم رحل في طلب علم الحديث فدخل مصر في ظل الدولة الإخشيدية، وسمع من أعلامها؛ من أمثال: أحمد بن شيبان الرملي، وأبي أمية الطرسوسي، ومحمد بن حماد الطهراني، ومحمد بن عبد الحكيم القطري(الذهبي، 422) وغيرهم من أعلام المُحِّدثين.

نزل أبو عمرو السمرقندي مع عمه عبد الجبار بن أحمد بن محمد بن هارون، سابق الذكر، في مدينة تَّنَيس المصرية فسكنها، وحدث بها. قال ابن يونس: " كان ثقة ، له سماعات صحاح في كتب أبيه "(ابن يونس، 145) ، وقال الذهبي: " انتهى إليه علو الإسناد بمصر، وهو أعلى شيخ لعبد الغني الأزدي"(الذهبي، 422).

أخذ عن عثمان كثير من طلاب العلم، يأتي في مقدمتهم؛ الحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي ـ المذكور في كلام الذهبي السابق ـ والمحدث والمؤرخ أبو عبد الله بن مَنَده ، وعبد الرحمن بن عمر النحاس، والخطيب بن عبد الله بن محمد، وأحمد بن محمد بن الحاج الأشبيلي، وسبطه محمد بن ذكوان التنيسي(الذهبي، 330) ، وآخرون.

ترك السمرقندي لنا مُصَنَّفًا واحدًا في السُّنَّة، يحمل عنوان:" الفوائد المنتقاة الحسان العوالي"(سزكين، 362) ، وقد وصل إلينا هذا الكتاب. توفي السمرقندي في مدينة تَّنَيس(السيوطي،369) ودفن بها سنة [345 هـ / 956م].

صفوة القول، أن أبا عمرو السمرقندي كان عاملاً هامًا في إثراء الحركة الفكرية بين مصر وبلاد ما وراء النهر، فقد سكن إحدى المدن المصرية، وأخذ عنه طلاب العلم المصريين، ثم صَنَّف كتابًا في السُّنَّة، وأخيرًا دفن في أرض مصر، التي أحبها وعاش فيها.

ومن أشهر مَن جمع في رحلته العلمية بين النهرين، أعني نهر النيل ونهر جيحون، الإمام سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن، المكني بأبي علي المصري، المشهور بالبزاز، لعمله في تجارة البز[القماش]. ولد في سنة [294 هـ / 907 م](الذهبي، 100) ، وحفظ القرآن الكريم ، ثم رُزق حب الحديث منذ صغره ، فسمع بمصر من محمد بن أيوب الصموت، ومحمد بن زيان، ومحمد بن بشر العكرى، وأبا جعفر الطحاوي(الذهبي، 88) وغيرهم. ثم طوَّف في بلدان العالم الإسلامي، فدخل بغداد(الذهبي، 117) و واسط(ابن عساكر، 218)، والأبلة، والبصرة ، والكوفة، ودمشق(السيوطي، 379) ، ونيسابور، ومرو ، وسرخس(الذهبي، 117). ثم عبر نهر جيحون، ليضع أقدامه ببلاد ما وراء النهر، فدخل بخارى في ظل الدولة السامانية[261 ـ 389هـ/ 874 ـ 999م]، وسمع بها " الجامع الصحيح " للإمام البخاري ، برواية محمد بن يوسف الفربري(الزركلي، 98) ثم عاد بعد هذه الرحلة الطويلة إلى مسقط رأسه مصر(ابن العماد، 112).

كانت رحلة ابن السكن إلى بلاد ما وراء النهر رحلة مباركة، أسفرت عن نتائج خطيرة في دراسة علم الحديث ليس في مصر وحدها، بل في بلاد المغرب الإسلامي كله. فقد تعرف المصريون لأول مرة على كتاب " الجامع الصحيح " للإمام البخاري، الذي انفرد ابن السكن بسماعه من الفربري. يقول الذهبي: " سمع ابن السكن صحيح البخاري من محمد بن يوسف الفريري ، فكان أول مَن جلب الصحيح إلى مصر، وحدث به "(الذهبي، 117).

كان من الطبيعي أن يلتف طلاب العلم حول ابن السكن للسماع منه ، خاصة إنه كان " كبير الشأن، مكثرًا ، متقنًا ، مُصَنِّفًا ، بعيد الصيت" كما يقول ابن تغري بردي(ص 389). يضاف إلى ذلك إنه " جمع ، وجَرَّح ، وعَدَّل ، وصَحَّح، وعَلَّل"(كحالة، 227) ، ورُزق حُسن الصوت وجمال الأداء وقوة الذاكرة. كل هذه المقومات العلمية، جعلت طلاب العلم يلتفون حوله، فكان من أشهرهم: أبو سليمان بن زبر الربعي، وأبو عبد الله بن مَنَده ، وعبد الغني بن سعيد، وعلي ابن الدقاق(الذهبي، 100). بل رحل إليه كثير من طلاب العلم من بلاد المغرب والأندلسي للأخذ عنه؛ يأتي في مقدمتهم: أبو القاسم خلف بن القاسم بن سهل الأندلسي، ومحمد بن أحمد بن محمد بن مفرج الأندلسي، وأبو محمد عبد الله بن محمد الجهني الأندلسي(عساكر،218) ، وعبد الله بن محمد بن أسد القرطبي، والقاضي محمد بن أحمد بن مفرج ، وغيرهم. قال الذهبي:" ولم نرَ تواليفه، هي عند المغاربة، وحديثه يعز وقوعه لنا"(الذهبي، 117) ، وقال في موضع آخر:" وتلامذته جماعة من الأندلسيين والمصريين"(الذهبي، 88). وهذا

يثبت أن ابن السكن كان جسرًا ثقافيًا عبر عليه علم الحديث ـ خاصة صحيح الإمام البخاري ـ من بلاد ما وراء النهر إلى مصر ومنها إلى بلاد الأندلس.

لم يكتفِ ابن السكن بالتعليم وسماع الطلاب منه ، بل صَنَّف كُتبًا هامة في علوم الحديث المختلفة، ومنها:

أ- كتاب:" الصحيح المنتقى"(سزكين،379) المعروف بـ " السنن الصحاح " أو " السنن في الحديث "(حاجي خليفة، 1006). وهو كتاب محذوف الأسانيد، جعله أبوابًا في جميع ما يحتاج إليه من الأحكام، فمنه ما صح عنده من السنن المأثورة. قال في مقدمته:" وما ذكرته في كتابي هذا مجملًا فهو مما أجمعوا على صحته، وما ذكرته بعد ذلك مما يختاره أحد من الأئمة الذين سميتهم، فقد بَنيتُ حجته في قبول ما ذكره ونسبته إلى اختياره دون غيره. وما ذكرته مما ينفرد به أحد من أهل النقل للحديث فقد بَينتُ علته ودللت على انفراده دون غيره "(الكتاني، 21).

ب- كتاب:" معرفة أهل النقل"، قال عنه ابن عساكر: " ورأيتُ له جزءًا من كتاب كبير صَنَّفه في معرفة أهل النقل، يدل على توسع في الرواية"(عساكر، 218).

هذا، ويعد الكتاب الأول، أعني " الصحيح المنتقى" أهم كتب ابن السكن على الإطلاق(كحالة، 227)، ويرجع سبب تأليف هذا الكتاب؛ إلى أن جماعة من شباب المُحِّدثين طلبوا منه الاقتصار على كتاب واحد من كتب السُّنَن، فدخل " إلى بيته وأخرج أربع رزم ، ووضع بعضها على بعض، ثم قال: هذه قواعد الإسلام؛ كتاب البخاري، وكتاب مسلم، وكتاب أبي داود، وكتاب النسائي(السيوطي، 379). ثم شرع في تأليف كتابه، رغبة منه في تسهيل علم الحديث على الناس عامة، وشباب المُحِّدثين خاصة.

على كل، لقى هذا الكتاب قبولًا عظيمًا عند أهل العلم وخاصة الأندلسيين منهم. لذا قال الذهبي :" وقع كتاب المنتقى الصحيح [هكذا] إلى أهل الأندلس، وهو كبير"(الذهبي، 100). وكان ابن حزم الأندلسي [384 ـ 456 هـ / 995 ـ 1063م] يثني على هذا المُصَنَّف(الذهبي، 117). وهذه شهادة لها ثقلها، خاصة إذا صدرت من مثل ابن حزم.

صفوة القول، أن ابن السكن، المصري المنشأ، رحل إلى بلاد ما وراء النهر ثم عاد إلى مصر، وأهدى إلى طلابها كتاب " الجامع الصحيح " للإمام البخاري. هذا الكتاب الذي ظل مجالاً للبحث والتأليف عدة قرون ، بل عبر من مصر إلى بلاد المغرب والأندلس. ولا غرابة ، فقد كان ابن السكن " حجة في علم الحديث " كما قال أحد المؤرخين(ابن العماد،12).

توفى ـ رحمه الله تعالى ـ في المحرم سنة [353 هـ / 964 م] ودفن بالقرافة الصغرى بجبل المقطم(ابن تغري بردي، 387) في أرض مصر التي عاش فيها ، ونشر علمه بين أهلها ، فأعطته الشهرة والثقة.

وما نكاد نقترب من نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حتى نجد علمًا من أعلام المُحِّدثين، مصري المولد، ولكن ـ على غير العادة ـ فضل سكنى بلاد ما وراء النهر؛ ليثبت لنا أن الحركة

الثقافية لا تعرف حدودًا مصطنعة بين الأقطار، فالثقافة لا وطن لها. إنه: أحمد بن نصر بن محمد، المعروف بالحافظ المصري(عساكر،53) ، والمكنى بابن أبي الليث(منظور، 312). سمع بمصر يونس بن عبد الأعلى الصدفي، وأحمد بن عبد الرحمن بن وهب(المقريزي، 727). ثم رحل في طلب العلم فدخل بلاد الشام، وسمع بدمشق(عساكر، 53) ، وقيسارية(السمعاني،311) ، والعراق، والجزيرة(الذهبي، 561). ثم رحل إلى طبرستان فسمع محمد بن جعفر النحوي ، ثم عنَّ له دخول خراسان، فاستوطن نيسابور سنة [339 هـ / 950 م] وسمع بها أبا العباس الأصم ، وأبا عبد الله بن الصفار(المقريزي، 728) وغيرهم.

صحب الحافظ المصري في نيسابور، أبى عبد الله الحاكم النيسابوري فسمع منه الحاكم ، وأثنى عليه في كتابه ـ المفقود ـ " تاريخ نيسابور " فقال : " قدم علينا [أحمد بن نصر] نيسابور، وهو باقعة في الحفظ ، ولقد رأيته يومًا يذكر ترجمة سليمان التيمي عن أنس [بن مالك]، فشبهته بالبحر في المذاكرة. وكان مع هذا يتقشف ويجالس الصالحين من الصوفية ، وكتب عندنا سنين"(عساكر،53).

دخل الحافظ المصري بخارى سنة [355 هـ / 965 م]، في ظل حكم الدولة السامانية لبلاد ما وراء النهر، وبالتحديد في ولاية منصور الأول بن نوح الساماني[350 ـ 366هـ/ 961 ـ 977م]؛ والذي تمتع رجال الدين عنده بمكانة خاصة، فكان يوقر العلماء، وخاصة المُحِّدثين منهم، وربما اختار من بينهم مَن يتولى منصب القضاة.

وجد الحافظ المصري أرضًا خصبة في بخارى، فاشتهر بجانب رواية الحديث، برواية الشعر والأدب، فأقبل طلاب العلم عليه، ينهلون من علمه وخلقه. فسرعان ما لمع نجمه في سماء بخارى، ثم ما لبث أن شغل منصب القضاء(السمعاني،311). ولكن ذلك لم ينسهِ التحديث؛ قال الحاكم النيسابوري: " وردتُ [عليه] وهو بغلمان ومراكب، فكان كثير الاجتماع معي، وحفظه كما كان، وكنتُ أتعجب منه"(الذهبي، 561).

هكذا طابت الحياة للحافظ المصري في بلاد ما وراء النهر حيث وجد نفسه، ووجد طلاب العلم حوله ينهلون من علمه، وسلطانًا يقدر مواهبه ويغدق عليه، مما جعله يجتهد في علمه وعمله. ومع كل ذلك ، فلم تغيره الدنيا. قال السمعاني :" كان حافظًا، فاضلًا، فهمًا، رحل من مصر إلى المشرق(بخارى)، وأدرك الشيوخ والأسانيد، وذاكر الحفاظ"(السمعاني، 311) ، وقال ابن العماد: " كان من الحفاظ الأيقاظ ، آية في الحفظ "(العماد،122).

هذا قليل من كثير مما قاله المؤرخون والعلماء على الحافظ المصري. ومما يؤسف له أنه لم يصلنا مُصَنَّفٌ له ، غير إشارة بسيطة من الإمام الذهبي، قال فيها:" ورأيتُ تصَنَّيفًا في السُّنَن (مخرومًا) أظنه له"(الذهبي، 561). توفى الإمام الحافظ المصري ببخارى(الصفدي، 138) في رمضان سنة [386 هـ / 996 م]، في ولاية نوح الثاني بن منصور الساماني[366 ـ 387هـ/ 977 ـ 997م].

وأخيرًا، من طلاب العلم الذين رحلوا من بلاد ما وراء النهر إلى مصر في طلب علم الحديث، محدثين مغمورين لم تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عن تاريخ وفاتهما، لذا لم أستطع تحديد الفترة التاريخية التي دخلوا فيها إلى مصر.

أولهما: محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله ، أبو الفضل الجاكرديزي ، نسبة إلى [جاكرديزه] ، وهي: محلة من محال سمرقند، كانت بها مقبرة كبيرة للعلماء المشهورين(السمعاني، 112). رحل في طلب علم الحديث ، فدخل خراسان، والعراق، والحجاز، ومصر(ياقوت ، 95). وسمع من معظم علماء هذه الأمصار؛ ومنهم: جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي، وأبي علاثة محمد بن عمرو بن خالد، وأحمد بن محمد بن الحجاج المصري، وأحمد بن طاهر بن حرملة بن يحيى المصري وغيرهم. روي عنه: أبو جعفر محمد بن فضلان بن سويد الجرجاني، ومحمد بن جعفر النحاس الجرجاني، والقاسم بن أبي بكر الإبريسمي السمرقندي(الأثير، 252) وغيرهم.

ثانيهما: محمد بن عيسى السمرقندي، الحافظ، رحل من سمرقند إلى مكة وسكنها مدة ، ثم رحل إلى مصر، وسمع بها على بن أحمد علان، وغيره. قال المقريزي: " كان حافظًا فهمًا بالحديث ، جماعًا للعلم ... ثقة "(المقريزي، 474).

الخاتمة وأهم نتائج البحث:

أولًا: أن العلاقات الثقافية بين مصر وبلاد ما وراء النهر قد وصلت إلى أقصى درجات النضج لها خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، وقد حصلت مدينة " بيكند " على المركز الأول خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فقد رحل منها خمسة علماء إلى مصر. على حين احتلت " سمرقند " المركز الأول خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فقد رحل منها ستة علماء إلى مصر.

ثانيًا: لم تقتصر رحلة المُحِّدثين من بلاد ما وراء النهر إلى مصر، على مدينة واحدة من مدن بلاد ما وراء النهر، بل كانت من معظم الأقاليم؛ بخارى ، نسف ، فرغانة ، الشاش ، سمرقند. كما لم يقتصر دخلوا هؤلاء المُحِّدثين على مدينة مصرية واحدة، بل تنوعت ، فمنهم مَن نزل الفسطاط، ومنهم مَن نزل مدينة تنيس .....إلخ.

ثالثًا: لم تقتصر العلاقات الثقافية على رحلة علماء بلاد ما وراء النهر إلى مصر فقط ، فإن كان القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، قد شهد رحيل بعض المُحِّدثين من بلاد ما وراء النهر إلى مصر، فقد شهد القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، رحيل عالِمين مصريين إلى بلاد ما وراء النهر، الأول منهما(الحافظ المصري) طابت له الحياة في بخارى، فعاش ومات بها. والآخر(ابن السكن المصري) اكتفى بالسماع وعاد مرة ثانية إلى مصر.

إذًا، أستطيع القول، أن العلاقة بين البلدين كانت تقوم على التأثير والتأثر، فكل منهما انتفع بعلم الآخر وأثر فيه. وهذا يؤكد أن الحركة العلمية لا تعرف الحدود المصطنعة بين الأوطان، ويثبت أن

العلاقات الثقافية بين البلدين قد أثرت في باقي أمصار العالم الإسلامي، ومن ثم فقد شاركت فيها بعض البلدان الأخرى، مثل: العراق، وبلاد المغرب والأندلس، وجرجان، ونيسابور، ومرو....... إلخ.

رابعًا: أن العلاقة الثقافية بين البلدين توجت برحلة الإمام البخاري إلى مصر في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، وبرحلة ابن السكن المصري إلى بلاد ما وراء النهر في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وكلا العالِمين كان له أثر كبير في جمع وتدوين الحديث.

خامسًا: من الغريب حقًا أن يتأخر دخول صحيح الإمام البخاري إلى مصر - برواية الفربري - مدة ما يقرب من قرن من الزمان تقريبًا. فقد توفى الإمام البخاري عام [256 هـ / 870 م] وابن السكن المصري الذي حمل الصحيح إلى مصر توفى عام [353 هـ / 964 م]، وهذا أمرٌ يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة لدى علماء الحديث.

سادسًا: أن مصر كانت جسرًا حقيقيًا في نقل العلوم كافة، وعلم الحديث خاصة، وصحيح البخاري على وجه أخص، إلى بلاد المغرب والأندلس؛ وذلك عن طريق طلاب العلم الذين رحلوا إلى مصر للأخذ عن المحدث ابن السكن المصري.

سابعًا: أن علم الحديث قد وصل إلى أقصى نضج له في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، وذلك بظهور صحيح الإمام البخاري في علم الحديث والذي أجمع علماء الأمة على صحته. وأما القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فقد شهد جدبًا علميًا في مجال التأليف في علم الحديث. فلم نحصل على كتاب جامع في علم الحديث خلال هذا القرن، باستثناء كتاب" صحيح المنتقى" لابن السكن المصري، والذي لم يصل إلينا هو الآخر.

لذلك أهيب بالمُحِّدثين بجدية البحث عن هذا الكتاب - إن كان موجودًا - ، والقيام بطبعه لإلقاء مزيد من الضوء على منهج ابن السكن المصري في تصنيف هذا الكتاب. وهل تأثر فيه بكتاب" الجامع الصحيح " للإمام البخاري الذي حمله إلى مصر أم لا ؟!.

الملاحق

ملحق رقم(1)

خريطة توضح رحلة الإمام البخاري في طلب العلم

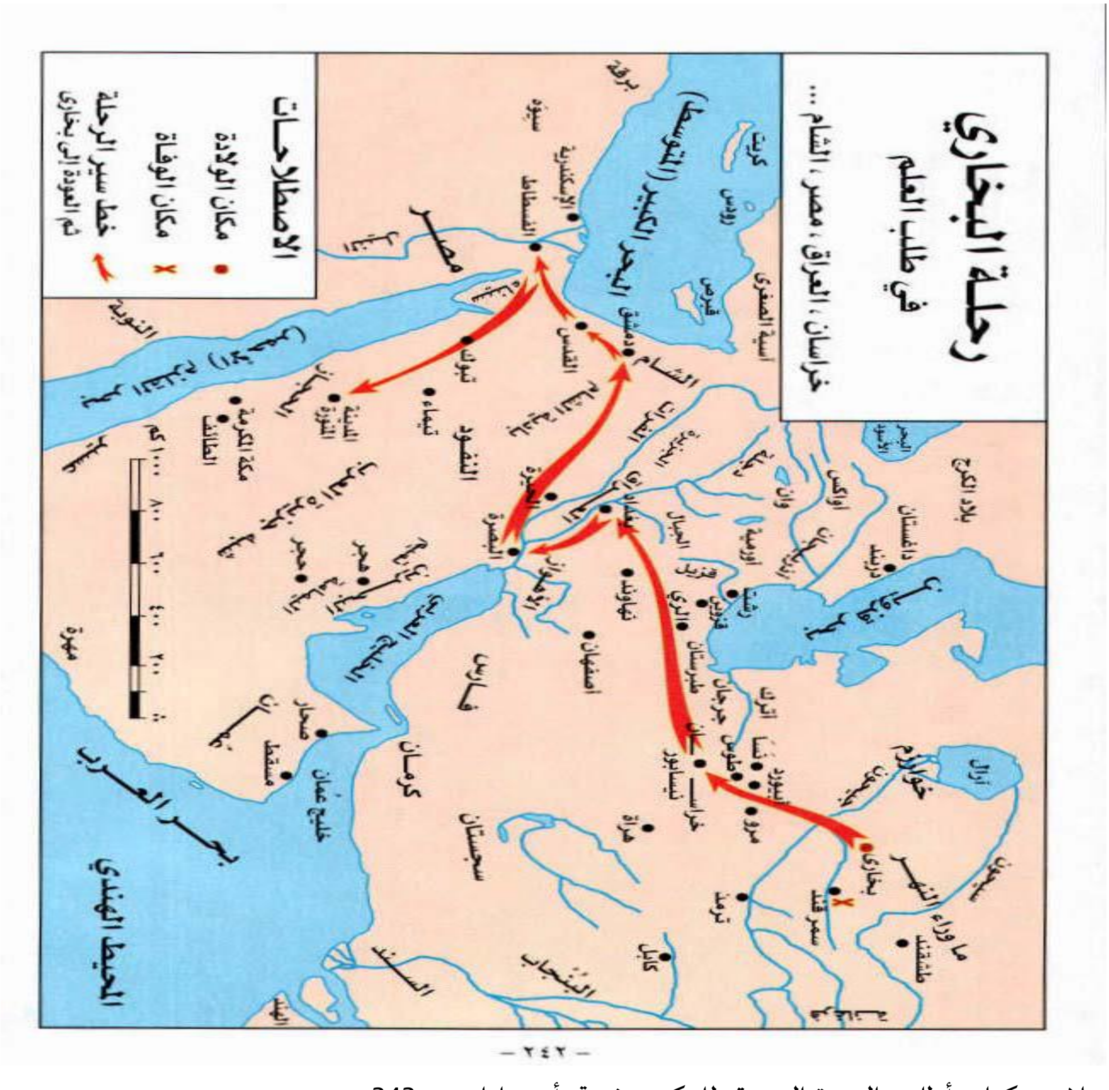

نقلا عن كتاب أطلس السيرة النبوية، للدكتور شوقي أبو خليل، ص242

ملحق رقم(2)

خريطة توضح رحلة الإمام الدَّارمي في طلب العلم

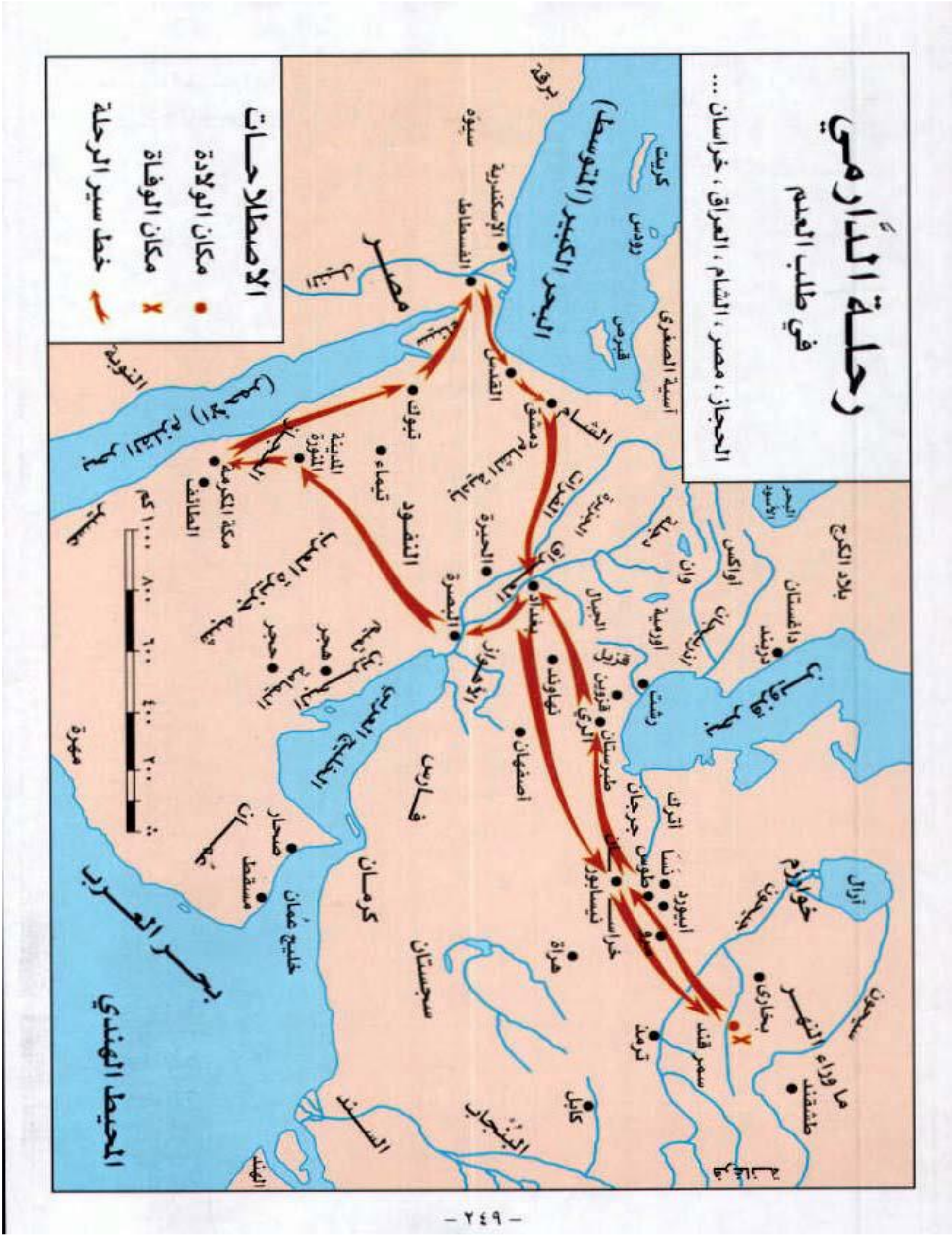

نقلا عن كتاب أطلس السيرة النبوية، للدكتور شوقي أبو خليل، ص249

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر العربية:

1. الجرجاني:(1981م): تاريخ جرجان، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، ط3، بيروت، عالم الكتب.
2. ابن حبان:(1975م): الثقات، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد،ط1، بيروت، دار الفكر.
3. ابن حجر:(1984م): تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة،ط1، حلب، دار الرشيد.
4. ابن حجر:(1984م): تهذيب التهذيب ،ط1، بيروت، دار الفكر.
5. ابن حجر:(1986م): لسان الميزان،ط3،بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
6. الخطيب البغدادي:(2001م): تاريخ بغداد، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
7. ابن خلدون: (2006م): المقدمة، تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، ط1، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب
8. ابن خلكان:(1998م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. مريم قاسم طويل ود. يوسف علي الطويل، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
9. الذهبي: (1993م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط2، بيروت، دار الكتاب الإسلامي.
10. الذهبي(1998م): تذكرة الحفاظ، تحقيق: زكريا عميرات،ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
11. الذهبي(1985م): سير أعلام النبلاء ، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط3، بيروت، مؤسسة الرسالة.
12. الذهبي(1985م): العبر في خبر مَن غبر، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول،ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
13. الذهبي(1995م): ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
14. السخاوي:(2003م): فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، تحقيق: علي حسين علي، ط1، القاهرة، مكتبة السنة.
15. السمعاني:(1988م): الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي،ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
16. السيوطي:(1993م): تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق: نظر محمد الفاريابي،ط1، القاهرة، دار طيبة.
17. الصفدي :(2000): الوافي بالوافيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط ، ط1، بيروت، دار إحياء التراث.
18. ابن عساكر:(1998م): تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، ط1، بيروت، دار الفكر.

19. ابن العماد الحنبلي:(1985م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط1، دمشق، دار ابن كثير.

20. عياض:(1998م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمد سالم هاشم، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

21. ابن ماكولا:(1990م): الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

22. المقريزي:(1996م): المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

23. ابن منظور: (1984م): مختصر تاريخ دمشق، تحقيق: مجموعة من الباحثين، ط1، دمشق، دار الفكر.

24. النسفي :(1999م): القند في ذكر علماء سمرقند، تحقيق: يوسف الهادي،ط1، طهران، مرآة التراث.

25. ياقوت الحموي:(1997م): معجم البلدان، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

ثانيًا: المراجع العربية:

26. أحمد أمين(2002م): ضحى الإسلام، ط1، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب.

27. أحمد أمين(1964م): فجر الإسلام، ط9، القاهرة، النهضة المصرية.

28. عمر رضا كحالة(1980م): معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

29. فؤاد سزكين(1991م): تاريخ التراث العربي،ط1، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود.

30. محمد أبو زهرة (1996م): تاريخ المذاهب الإسلامية، ط1، القاهرة، دار الفكر العربي.

31. محمد محمد أبو شهبة(2009م): في رحاب السنة - الكتب الصحاح الستة ، ط1، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية.

32. محمود محمد خلف(2014م): بلاد ما وراء النهر في العصر العباسي،ط1، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.